

## تاريخ دراسة الأديان: من العصور القديمة إلى القرن الثامن عشر

### الأعلام، المميزات، الإسهام في تأسيس علم الأديان

يوسف الشاطر

#### خلاصة البحث:

يعنى هذا البحث بذكر أهم المراحل التاريخية التي مر بها علم الأديان، أو مقارنة الأديان، قبل أن ينضج ويستقر علما قائما بذاته في منتصف القرن التاسع عشر في أوروبا، محاولا بيان ما تميزت به كل مرحلة تاريخية، سواء على مستوى الإنتاج، أو الالتزام بالقواعد العلمية في الدراسة، كما يكشف البحث عبر مباحثه النقاب عن مجموعة من أعلام هذا الفن، وما قدموه من دراسات أسهمت في بناء صرح هذا العلم.

Conclusion of the research: This research means by mentioning the most important historical stages of religious science, or the comparison of religions, before it matures and establishes a self-standing flag in the middle of the 19th century in Europe, trying to show what has been characterized by each stage, whether at the level of production, or by adhering to the scientific rules in the study. The research also reveals through its discussion a collection of the flags of this art, and their studies that contributed to the construction of the edifice of this flag.

#### مقدمة:

اختلف الباحثون حول نشأة الفرع العلمي الموسوم "مقارنة الأديان" أو "علم الأديان" وحول مؤسسيه، وحول بداياته الأولى، فهناك من قال إنه بدأ منذ أقدم العصور مع الإغريق والرومان والهنود، وذهب آخرون إلى أنه علم إسلامي، كان للمسلمين فضل السبق إليه. إلا أن الذي عليه أغلب الباحثين في هذا المجال هو أن هذا العلم لم يظهر علما قائما بذاته وفق مناهج وقواعد معينة، إلا في أوروبا منذ أواسط القرن التاسع عشر، فهو علم حديث النشأة، وضع وثيقته التأسيسية عالم الفيلولوجيا ماكس مولر.

يقول الباحث في مقارنة الأديان تيواري كيدرنات (Tiwari Kedarnath):

« The subject of comparative religion as a scientific study of the various features of the different religions of the word in a comparative perspective is relatively a late development. »<sup>1</sup>

<sup>1</sup> Tiwari Kedarnath, Comparative religion, Motilal Banarsidas, Delhi, 1983, p1

إن موضوع مقارنة الأديان كدراسة علمية لسمات الديانات العالمية المختلفة لا يعدو أن يكون حديث العهد، أو متأخر التطور.

ويقول بينار دولا بولاي (Pinard de la Boullaye) - بعد أن عرف علم الأديان - :

« il faut avouer que cette science est toute récente. Science des religions et science du langage sont presque contemporaines : elles datent du siècle dernier.»<sup>2</sup>

يجب الاعتراف بأن هذا العلم حديث جدا. علم الأديان وعلم اللغة معاصران لبعضهما تقريبا، يعود ظهورهما للقرن الماضي. (أي القرن التاسع عشر)

والسبب في تأخر ظهور هذا العلم - كما يرى الباحث كيدرناث - هو أن معظم العلوم المعاصرة قد نشأت في الغرب، ومن ثم كان ينبغي الانتظار حتى يوجه الغرب اهتمامه لهذا الحقل العلمي في القرن التاسع عشر. يقول:

« One important reason of this late beginning of the study of the subject may be attributed to the fact that most of the scientific studies of modern times have originated from the west. »<sup>3</sup>

ورغم أن هذا العلم يعتبر علما حديثا لم يظهر بمناهجه العلمية إلا مع فجر القرن التاسع عشر في أوروبا، فإن جذوره وإرهاباته تمتد في أعماق التاريخ، ذلك أن الحديث عن العقائد البشرية - كما يرى عبد الله دراز - في جوهره شأن قديم - معاصر، لاختلاف الناس في ملهم ونحلهم، تتسع مادته حيناً وتضيق حيناً بمقدار تعارف أهل الأديان فيما بينهم، ووقوف بعضهم على مذاهب بعض<sup>4</sup>. ولهذا وجدنا من الباحثين من يشير إلى أن دراسة الأديان قد بدأت منذ أقدم عصور التاريخ، منهم المستشرق الأمريكي ألفرد جيفري (A. Jeffrey) الذي يرى أن الاهتمام بدراسة الأديان إنما يرجع إلى مرحلة موعلة في القدم، هي

<sup>2</sup> de la Boullaye Pinard, Histoire de l'étude comparée des religions, Copyright by Gabriel Beauchesne, Paris, 1922, p23

<sup>3</sup> Comparative religion, p1

<sup>4</sup> دراز عبد الله، الدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، دار القلم للنشر والتوزيع، القاهرة، 2003، ص90

مرحلة الألواح المسمارية التي يتجلى فيها الاهتمام الواضح بالشعائر الدينية التي كانت تتصل بمراكز العالم القديمة المختلفة، مروراً بالإغريق الذين امتد اهتمامهم إلى وصف أديان الشعوب الأخرى ومقارنتها بالظواهر المتعلقة بما في دياناتهم<sup>5</sup>. ومنهم كيدرناث الذي يرى أن المحاولات الأولى لعلم مقارنة الأديان ظهرت بالهند، غير أن الوضعية السياسية التي كانت سائدة حالت دون الاهتمام بهذه المحاولات. يقول:

« Attempts at comparative study of religions have been made in India since very old days, but due to the political subjugation that she had to suffer for long, her voice was not recognized and cared for in the family of nations. »<sup>6</sup>

ويرى بولاي أنه إذا أخذنا كلمة علم بمفهوم واسع يدل على كل معرفة تعتمد على سلسلة دقيقة من الأدلة، فإن علم الأديان يجد جذوره في جهود الفلاسفة الأوائل الذين سعوا لتقديم شرح شامل للكون، مما أدى بهم إلى الإقرار بوجود الإله، وضرورة العبادة:

« Si l'on prend le mot science dans un sens large, comme désignant toute connaissance qui ne s'appuie ni sur la seule expérience individuelle, ni sur l'autorité pure, mais sur un enchaînement rigoureux de preuves, la Science de la religion trouve ses origines dans les efforts des premiers philosophes pour fournir une explication totale de l'univers, qu'ils aient abouti à reconnaître l'existence de la divinité et la nécessité d'un culte. »<sup>7</sup>

انطلاقاً مما سبق حق لنا أن نتساءل عن أهم الأبحاث والدراسات الدينية التي عرفت عصور التاريخ، وعن أصحابها، وعن مميزاتها، وعن مدى علميتها، وموضوعيتها وإسهامها في تأسيس علم الأديان؟ وفي هذا لسياق يأتي هذا البحث المعنون ب: تاريخ دراسة الأديان، من العصور القديمة إلى القرن الثامن عشر، ليعلم الضوء على فترة زمنية طويلة وهامة جداً في علم مقارنة الأديان، شكلت أساساً وركيزة هذا العلم بما قدمته من أبحاث ودراسات دينية. ويسلط الضوء كذلك على مجموعة من الأعلام، ومحاولاتهم الجادة في ميدان دراسة الأديان.

<sup>5</sup> تركي إبراهيم، علم مقارنة الأديان عند مفكري الإسلام، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، 2002، ص45

<sup>6</sup> Comparative religion, p1

<sup>7</sup> Histoire de l'étude comparée des religions, p23

وقد قسمت العمل إلى ستة مباحث، خصصت كل واحد منها لعصر من العصور التاريخية، فبينت فيه أهم الدراسات الدينية التي شهدتها تلك العصر، وأصحابها، ومدى علميتها وموضوعيتها وحيادها، ومدى إسهامها في تأسيس علم الأديان.

### المبحث الأول: دراسة الأديان في العصر الإغريقي

يرى ميشل مسلان أن بعض المسائل المتعلقة بعلم الأديان قد عرفت الظهور منذ البدايات الإغريقية الأولى، معللاً ذلك بطبيعة النظام الديني الذي كان سائداً آنذاك، والذي كان يسمح لبعض المفكرين بالوقوف موقف الملاحظين والنقاد الموضوعيين<sup>8</sup>. وكان تبلور النقد في مرحلة أولى - يضيف مسلان - مرتبطاً بوعي ذاتي بالتناقضات الموجودة بين بعض التصورات الدينية عن العالم والصورة العلمية المعاصرة حينئذ<sup>9</sup>، لتتوالى بعد ذلك الدراسات النقدية الدينية، حيث انتقد هيراقليس أولئك الباحثين عن التطهر عبر التلطيخ بدم الأضاحي والرافعين تضرعاتهم لأوثان، واعتبر ثيوجان الريجوني أن الآلهة ليست سوى قوى طبيعية مؤهلة<sup>10</sup>، واعتبرها إيفمير ملوكا وأبطالاً ألهم أتباعهم المعجبون بهم بعد وفاتهم. وذهب كازنوفان وهرقليط إلى أن الأسطورة تعبير رمزي، شعري أو شعبي، عن ظاهرات الطبيعة<sup>11</sup>.

إلى جانب هذه الدراسات النقدية الفلسفية التي كانت تهدف - حسب عبد الله دراز - إلى تمحيص حقيقة الدين بوجه عام في ثنايا البحث عن حقائق الأشياء<sup>12</sup>. كانت هناك دراسات وصفية لمختلف الطقوس

<sup>8</sup> مسلان ميشال، علم الأديان، مساهمة في التأسيس، ترجمة عز الدين عناية، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2009، ص7

<sup>9</sup> مثال ذلك: التناقض بين تصورات علم الفلك التجريبي الفيثاغورسي والاعتقادات الرسمية لديانة المدينة، فهذه الأخيرة كانت ترى الشمس هليوس إلهة، شاهدة صدق على أي شيء وراعية للعهد البشرية، في حين رأت فيها الأولى مجرد كوكب ملتهب. علم الأديان، مساهمة في التأسيس، ص7

<sup>10</sup> علم الأديان، مساهمة في التأسيس، ص7

<sup>11</sup> جيب وعادل العوى، علم الأديان وبنية الفكر الإسلامي، منشورات عويدات، بيروت، 1977، ص7

<sup>12</sup> الدين، ص13

والعقائد الدينية، حيث نجد في الإلياذة والأوديسة<sup>13</sup> ذكر أسماء آلهة الإغريق وآلهة خصومهم، ووصف القربان والضحايا والتوسلات التي كان يتوجه بها إلى الآلهة، وما كان يجري بين آلهة السماء حين تتشاور فيما بينها، إلى غير ذلك<sup>14</sup>. وقد تميزت هذه الدراسات بضيق رقعة البلاد التي يتناولها الوصف، وبأن شؤون الأديان فيها إنما سقت عرضاً في ثنايا الشؤون الحيوية الأخرى، وبما تتسم به رواياتها من الطابع الأسطوري والتمثيلي الذي يستمد الكاتب من خياله وأسلوب تفكيره في تحليل الحوادث والنوازل<sup>15</sup>. إلا أن كل ذلك سينتفي مع المؤرخين الرحالة أمثال هيرودوت (Hérodote<sup>16</sup>)، فرغم أنهم لم يفرّدوا للأديان تأليفاً مستقلاً، فقد اعتمدوا على المشاهدات لا على التخيلات، كما أن نطاق البحث كان أوسع، حيث قام الرحالة الإغريق بتقديم تقارير حول الطقوس الفردية لعدد من الشعوب، كما جمعوا الأساطير ووصفوا العادات الدينية التي شاهدوها أثناء رحلاتهم<sup>17</sup>.

كما امتازت دراسات الرحالة أيضاً بطابع المقارنة بين معبودات الإغريق ومعبودات غيرهم. وهذه المقارنة هي التي جعلت هيرودوت يغامر أمام جمهور فخور بثقافته ويقول إن بعض العبادات الإغريقية اشتقت، أو أخذت عن البرابرة، وجعلته كذلك يشيد بعلم المصريين، ويكشف عن تقاليدهم في العصور الغابرة معتبراً أن أسماء الآلهة الإغريقية هي نفسها أسماء الآلهة المصرية، أخذها السكان الأوائل لليونان (les Pélasges) عن المصريين ونقلوها إلى اليونان<sup>18</sup>.

<sup>13</sup> تعتبر الإلياذة والأوديسة أهم ملحمتين شعريتان في التاريخ القديم، و يقال أن مؤلفهما هو هوميروس، وترويان قصة حصار مدينة طروادة عام 200 ق.م. وتدور أحداثهما حول الآلهة و البشر. وصورهما هوميروس في شكل ساخر وبين فيهما أن البشر يتأثرون بالصلاة. ولهم إرادة حرة يصنعون من خلالها قراراتهم ويتحملون أخطاءهم.

<sup>14</sup> الدين، ص12

<sup>15</sup> نفسه، ص12

<sup>16</sup> هيرودوت أو هيرودوتس، مؤرخ إغريقي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد اشتهر بالأوصاف التي كتبها لأماكن عدّة زارها وأناس قابلهم في رحلاته وكتبه العديدة عن السيطرة الفارسية على اليونان، عرف بأبي التاريخ وكتابه تاريخ هيرودوتس الذي يصف فيه أحوال البلاد والأشخاص التي زارها في ترحاله حول حوض البحر الأبيض المتوسط.

<sup>17</sup> Histoire de l'étude comparée des religions, p31

<sup>18</sup> Histoire de l'étude comparée des religions, p33

ثم جاءت فتوحات الإسكندر المقدوني، فكانت سببا في انفساح مجال المعرفة لأديان أخرى، حيث وصلت جيوش الإسكندر إلى الهند وكتب عنها<sup>19</sup> (Mégasthènes).

### المبحث الثاني: دراسة الأديان في العصر الروماني

وفي العهد الروماني - وبسبب الخضوع للمقدس والإلزام بالمسؤولية الجماعية<sup>20</sup> - تراجع النقد - الذي بدا لمسلان مع الإغريق ضرورة لإرساء علم الأديان - وخبت حدته<sup>21</sup>، ورغم ذلك لم يخل هذا العصر من دراسات دينية، خصوصا من قبل شيشرون و فارون، الذين شدا انتباه بولاي فقال فيهما - في سياق حديثه عن الدراسات الدينية في العصر الإغريقي - الروماني - :

"اثنان خصوصا شكلا بالنسبة لنا اهتماما خاصا، شيشرون وفارون، هذا الأخير في كتابه: الآثار الرومانية، راكم بسعة اطلاع معجز معلومات قيمة حول الديانة الرومانية، فبعد مقدمة عامة، كرس أربعين كتابا (أو بابا) آخر للحديث عن رجال الدين، والأماكن المقدسة، والأعياد، والطقوس والآلهة كذلك. والآخر في بحثه عن طبيعة الآلهة، وضع في الحساب ممثلي مختلف المدارس الفلسفية. هذا إضافة إلى وصف خالص للمعتقدات في القرن الأخير من العصر الوثني<sup>22</sup>."

إلا أن تلك الدراسات كانت بأسلوب - يقول عبد الله دراز - ينم عن التردد والحيرة وعدم العناية بالبحث الجدي أكثر مما يعبر عن روح التسامح الديني الذي ينسب إلى ذلك العصر<sup>23</sup>.

<sup>19</sup> الدين، ص36

<sup>20</sup> يتحدث « Freezer » عن هذا الخضوع والإلزام بالمسؤولية الجماعية في كتابه الغصن الذهبي، حيث يذكر أن المجتمع الروماني ثم بناؤه على أساس خضوع الفرد للمجتمع، وأن يجعل سلامة الدولة هدفه الاسمي ولو كان ذلك على حساب سلامته الشخصية، سواء في هذا العالم، أو العالم الأثني، ويضيف (Freezer) إن التكوين منذ الصغر في هذا الجو النزيه يجعل المواطنين يكرسون حياتهم للخدمة العامة، بل يكونون على استعداد لتتبيثها لهذا الهدف. يقول Freezer : «The Roman society was built on the conception of the subordination of the individual to the community, of the citizen to the state; it set the safety of the commonwealth, as the supreme aim of conduct, above the safety of the individual whether in this world or in the world to come. Trained from infancy in this unselfish ideal, the citizens devoted their lives to the public service and were ready to lay them down for the common good. » Frazer James George, The golden bough , a study of magic and religion, temple of earth publishing, p318

<sup>21</sup> علم الأديان، مساهمة في التأسيس، ص37

<sup>22</sup> Histoire de l'étude comparée des religions, p59

<sup>23</sup> الدين، ص18

وعموماً فالدراسات الدينية التي جرت سواء في العصر الإغريقي، أو الروماني - رغم كثرتها وتوعها - فإنها لم تكن علمية بالمعنى الذي عرف به علم الأديان. وهذا ما أكده بولاي بعد استعراضه لمختلف تلك الدراسات :

« De science des religions, au sens moderne du mot, nous n'en avons rencontré nulle part.»<sup>24</sup>

### المبحث الثالث: دراسة الأديان في التراث اليهودي:

كانت الدراسات الدينية في التراث اليهودي هزيلة ومحدودة ومقتصرة على العهد القديم، ولا علاقة لها بباقي الأديان، وهذا أمر بديهي نظراً لما تميز به اليهود من انغلاق، ومن إيمان بأنهم شعب الله المختار، ومن تم عدم إعطاء الاهتمام للشعوب الأخرى، وبالأحرى دراسة أديانهم.

ولم تبدأ الدراسات الدينية الجادة - حسب خزعل الماجدي - إلا مع التلمود الذي أظهر كثيراً من تناقضات العهد القديم. وفي القرن التاسع الميلادي وبعده ظهر مجموعة من الفاحصين الجيدين لنصوص التوراة، والناقدين لها مثل مشوى هعبخبري، وحيوي البلخي، وسعديا جاؤون، وفي الأندلس ظهرت مجموعة من اللغويين المشتغلين بالبحث الديني مثل يهوذا بن قوريش ويوحنا بن جناح وغيرهم من الذين استعملوا قواعد اللغة العبرية في نقد نصوص العهد القديم. ويبقى أبرهام بن عزرا من أبرز نقاد العهد القديم وأكثرهم شهرة، ذلك أنه فتح الأبواب على مصاريعها لتفسيرات جديدة للعهد القديم.<sup>25</sup>

### المبحث الرابع: دراسة الأديان في التراث المسيحي

وفي التراث المسيحي خلت الدراسات الدينية من الموضوعية؛ حيث كانت كلها تصب لصالح المسيحية التي اعتبرت نفسها أفضل الأديان، وأنها هي الدين الصحيح. يؤكد القديس (Justin) ذلك بقوله:

<sup>24</sup> Histoire de l'étude comparée des religions, p62

<sup>25</sup> علم الأديان، ص 70-71 بتصرف

صحيح أننا نعتنق بعض المذاهب المشابهة لتلك التي يعتنقها الشعراء والفلاسفة، ولكن لدينا أيضا أخرى أكثر جمالا وأكثر ألوهية، ونحن فقط القادرون على منحها صورة أو مظهرا.<sup>26</sup>

بل أكثر من ذلك اعتبر القديس أغوسطين (Augustin) أن المسيحية كانت موجودة عند القدماء، وأنها لم تتوقف عن أن تكون - منذ بزوغ النوع الإنساني حتى مجيء المسيح في الجسد - هي الدين الصحيح.<sup>27</sup>

وفي ظل هذه الأجواء يتربى المسيحي ليؤمن بأن دينه وحده هو الدين الحقيقي، مع الإيمان باليهودية كمقدمة للمسيحية، وأن كل الديانات الأخرى خطأ، وأن الله قد اصطفى بني إسرائيل لهدف وحده ورسالته وبعث أنبيائه.<sup>28</sup>

وقد بلغ الإيمان المسيحي شأوا عظيما في العصر الوسيط، وكان من نتيجة ذلك التعصب والإعلان عن أن جميع الديانات - ماعدا المسيحية - ذات أصل شيطاني، ولذا فإنها عقائد زائفة كاذبة.<sup>29</sup>

ومن ثم فقد كانت جل الدراسات الدينية في هذا العهد ذات منحى واحد، ألا وهو الرفع من قيمة المسيحية، والحط من قيمة باقي الأديان. يقول إريك شارب: "لم يدرس الغرب المسيحي - طوال تلك القرون - الأديان المخالفة إلا بغرض دحضها، وتمايم قهرها، كما أن نظرياتهم اللاهوتية عن أصل أو نشأة الأديان انتهت إلى أنها رجس من أعمال الشياطين، أو من أعمال الملائكة الساقطين." ويضيف إن الانغلاق الصارم والتعصب كانا وراء ذلك، بل وراء الاعتقاد بأن أي دراسة للأديان الأخرى لن تقود إلا إلى تناقض حاد مع المسيحية.<sup>30</sup>

### المبحث الخامس: دراسة الأديان في العصر الإسلامي

<sup>26</sup> Histoire de l'étude comparée des religions, p81

<sup>27</sup> Histoire de l'étude comparée des religions, p109

<sup>28</sup> غريز ألفت، محمد والمسيح دراسة مقارنة، ترجمة بسام مرتضى، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت، 1996، ص13

<sup>29</sup> علم الأديان وبنية الفكر الإسلامي، ص7

<sup>30</sup> الشراوي محمد عبد الله، في مقارنة الأديان، بحوث ودراسات، دار الفكر العربي، القاهرة، 2002، ص36، نقلا عن Eric Sharpe, comparative religion



وجد المسلمون أنفسهم - بفعل عدة عوامل - مدفوعين دفعا نحو تناول الأديان بالدرس والتحليل. وقد ذكر إبراهيم تركي عددا من العوامل معتبرا أنها كانت وراء إقبال علماء الإسلام على هذا العلم، فنكر القرآن الكريم وما حوى من إشارات ودعوات لتناول الأديان بالدراسة والتحليل، والتأكد من أن الإسلام هو الدين الحق، وذكر اتساع الفتوحات الإسلامية، والاحتكاك بأصحاب الديانات الأخرى، كما ذكر ازدهار التأليف عند المسلمين، وتسامحهم اتجاه أتباع الأديان الأخرى.<sup>31</sup> وذكر مسعود حايبي عامل الاعتراف بالأخر المختلف دينيا، وعامل نشاط حركة الترجمة في العصر العباسي.<sup>32</sup>

فمنذ القرن الثاني الهجري انفتح الفكر الإسلامي على أديان العالم، وجعلها موضوعا مستقلا للدراسة والبحث<sup>33</sup>، ووضع علماء الإسلام لذلك مناهج علمية سديدة، فوصفوا أديان العالم وحللوها وقارنوا بينها وأرخوا لها وانتقدوا بعضها<sup>34</sup>. ورغم أنهم لم يكونوا السباقين إلى ذلك، إلا أن دراستهم للأديان امتازت عن دراسة من سبقهم - حسب عبد الله دراز - بطابعين جديدين: الأول هو أن الحديث عن الأديان أصبح دراسة وصفية واقعية منعزلة عن سائر العلوم والفنون، شاملة لكافة الأديان المعروفة في عهدهم. والثاني هو أنهم لم يعتمدوا في وصفهم للأديان المختلفة على الأخيلة والظنون، ولكنهم كانوا يستمدون أوصافهم من مصادرها الموثوق بها<sup>35</sup>.

<sup>31</sup> علم مقارنة الأديان عند مفكري الإسلام، ص 34-37.

<sup>32</sup> حايبي مسعود، مدخل لدراسة تاريخ الأديان، دار الأوائل للنشر والتوزيع، دمشق، 2010، ص 43

<sup>33</sup> يذهب أغلب الباحثين إلى أن أوائل من كتب عن الديانات في الفكر الإسلامي، أبو عيسى الوراق (المتوفى 247) والنوبختي (المتوفى ما بين 300 و310) والمسعودي (المتوفى 345) إلا أن هناك إشارات تفيد اهتمام المسلمين بالأديان قبل ذلك، حيث يظهر من فهرست ابن النديم أن أول بعثة علمية خرجت من جزيرة العرب لدراسة الأديان الأخرى، خرجت في أواخر القرن الثاني في عهد خالد بن يحيى البرمكي، وزير الدولة العباسية، فقد بعث رجلا إلى الهند، وأمره أن يكتب له عن أديانها وأساطيرها. وأن الكتاب الذي ألفه هذا الرجل وقدمه إلى الوزير العباسي، وصل إلى ابن النديم بخط يعقوب بن إسحاق الكندي المتوفى سنة 252، وفيه أحوال الهند، وعادات الهندوس، وعدد آلهتهم، وطريقة عبادتهم، وأوضاع معابدهم وما إلى ذلك. الأعظمي محمد، دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند، مكتبة الرشد ناشرون، الرياض، 2003، ص 28

<sup>34</sup> في مقارنة الأديان بحوث ودراسات، ص 32

<sup>35</sup> الدين، ص 21

وإن الناظر في التراث الإسلامي سيجد أن الحديث عن الأديان قد تقاسمته علوم عديدة<sup>36</sup>، منها علم التفسير، حيث قدم المفسرون إيضاحات وبيانات لا بأس بها من حيث قيمتها العلمية والموضوعية عن الأديان التي ورد ذكرها في القرآن. نجد ذلك خصوصا في كتب التفسير التي تتسم بالشمول والتفصيل مثل تفسير الطبري "جامع البيان في تأويل القرآن" وتفسير الزمخشري "الكشاف" وتفسير الفخر الرازي "مفاتيح الغيب". ومنها علم التاريخ<sup>37</sup>، حيث تعرض المؤرخون للحديث عن الأديان في إطار حديثهم عن الشعوب والأمم التي كانوا يؤرخون لها، إلا أنهم لم يفرّدوا لها فصولا خاصة، وإنما اختلط الحديث عن الأديان عندهم بالحديث عن أمور أخرى لا تعني الباحث في مقارنة الأديان. ومنها علم الكلام<sup>38</sup>، فقد أفسح المتكلمون جانبا لا بأس به من نشاطهم الفكري للحديث عن الأديان في شيء من الدقة والعمق والتفصيل<sup>39</sup>، حتى اعتبر بعض الباحثين علم مقارنة الأديان مبحثا من مباحث علم الكلام<sup>40</sup>.

هذا الاهتمام الكبير بدراسة الأديان عند المسلمين، وهذه الحقول المعرفية المتعددة التي تقاسمت الموضوع، إضافة إلى تنوع العوامل المحيطة بعلماء الإسلام الذين كتبوا عن الأديان، كل ذلك نتج عنه

<sup>36</sup> هذا لا يعني أن دراسة الأديان لم تكن علما مستقلا بذاته في الفكر الإسلامي، فإبراهيم تركي يرى أنها ظهرت في البداية في إطار علوم إسلامية متعددة، قبل أن تستقل بعد ذلك متمثلة في علم مقارنة الأديان. علم مقارنة الأديان عند مفكري الإسلام، ص37

<sup>37</sup> من أهم ما كتب في هذا الشأن: كتاب "التاريخ" لأحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي (ت أوائل القرن الرابع)، وكتابات أبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت 345)، وجلها مفقود باستثناء كتابين هما: "مروج الذهب" و"التنبيه والإشراف"، وكتاب "البدء والتاريخ" لأبي نصر المقدسي (ت القرن الرابع)

<sup>38</sup> يمكن تقسيم دراسات المتكلمين للأديان إلى قسمين: القسم الأول يتمثل في تلك الدراسات التي كان هدفها هو الدفاع عن الإسلام والرد على باقي الأديان، ومن أمثلتها كتاب "المعني في أبواب العدل والتوحيد" للفاضل عبد الجبار (ت 415) حيث أفرد جزءا من هذا الكتاب للحديث عن الفرق غير الإسلامية. أما القسم الثاني فتمثل في تلك الدراسات التي اهتمت بالأديان لذاتها، ويتجلى ذلك بوضوح في كتب المقالات والفرق والملل والنحل، مثل كتاب "الملل والنحل" الشهرستاني. علم مقارنة الأديان عند مفكري الإسلام، ص42

<sup>39</sup> علم مقارنة الأديان عند مفكري الإسلام، ص37-42

<sup>40</sup> يذهب آدم متر إلى أن نشأة علم مقارنة الأديان في الفكر الإسلامي لم تكن من جانب المتكلمين مستدلا بأن أوائل من ألفوا في هذا العلم لم يكونوا من المتكلمين، فذكر النوبختي، وهو مؤلف أول كتاب له شأن في الآراء والديانات، وذكر المسعودي الذي ألف كتابين في الديانات، وذكر المسبجي، صاحب كتاب درك البغية في وصف الأديان والعبادات، وهؤلاء جميعا لم يكونوا من المتكلمين. الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ص366-367. ويرى عبد الله الشرقاوي من جهته أن علم مقارنة الأديان مستقل عن علم الكلام، معتبرا أن الدليل القائل بأن أكثر من كتب في هذا العلم من المتكلمين غير كاف للتدليل على كون علم مقارنة الأديان جزء من علم الكلام. وفي ذلك يقول: "إن كثيرا ممن كتبوا في أصول الفقه كانوا من المتكلمين كذلك، فهل نازع أحد في استقلال أصول الفقه عن علم الكلام، ثم إننا نميز بين علم وآخر عن طريق أمور ثلاثة: الموضوع والمنهج والغاية، ومن المقبول بين أهل الاختصاص اليوم، أن وظيفة علم الكلام تتحد في البرهنة العقلية على صحة العقائد، والحجاج العقلي عنها ضد المخالفين... يلتقي علم الكلام مع علم الدين المقارن في جانب من موضوعه، وهو درس موضوعات أو جوانب من أديان المخالفين، لكن يبقى أن علم الكلام يحتفظ باستقلال وظيفته ومنهجه في البحث عن علم الدين المقارن، ولم يقل أحد أن مهمة علم الكلام أن يؤرخ للديانة الجينية، أو أن يرصد ويصف التطور الذي لحق بالديانة البوذية مثلا، وإن اتفق ودرس المتكلم جانبا من الديانة الهندوسية مثلا، فهو يدرسه بمنهج جدلي... فهو إذن يشكل حقا متميزا من حقول الفلسفة الإسلامية، وإن من طبيعة العلوم الإسلامية أن تتشابه وتتلاقى دونما غضاضة، وأن تتعانق وتتساند في أداء دورها في منظومة الفكر الإسلامي." في مقارنة الأديان بحوث ودراسات، ص35-36

تنوع في مناهج دراسة الأديان عند المسلمين، فمنهم من أرخ ووصف، ومنهم من حلل وانتقد، ومنهم من رد وجادل.

وقد شغل التاريخ للأديان ووصفها مساحة واسعة من فكر المسلمين حتى امتلأت المكتبة الإسلامية بكتب عديدة ذات صلة بالموضوع، فقد كتب أبو عيسى الوراق (ت247) "مقالات الناس واختلافهم" وكتب آخرون كتباً حملت اسم "المقالات" منهم أبو القاسم البلخي (ت319)، وأبو الحسن الأشعري (ت319)، والمسعودي (ت346). ثم كتب النوبختي (ت310) كتابه "الآراء والديانات"، وصنف المسبحي (ت420) "درك البغية في الأديان والعبادات"، وكتب كثيرون كتباً بعنوان "الملل والنحل" مثل أبي منصور البغدادي، والشهرستاني<sup>41</sup>.

ولم يعتمد علماء الإسلام في وصفهم للأديان المختلفة على الخيال والظن ولا على الأخبار المحتملة للصدق والكذب، ولا على العوائد الشائعة في الطبقات الجاهلة التي قد تتحرف قليلاً أو كثيراً عن حقيقة أديانها، ولكنهم استمدوا أوصافهم لكل ديانة من مصادرها الموثوق بها، واستقوها من منابعها الأولى<sup>42</sup>. كما امتاز منهجهم في وصف الأديان بالموضوعية والحياد، وبكثير من السمات التي تعتبر اليوم من أهم قواعد البحث في الأديان ودراساتها.

أما فيما يخص الرد على الأديان ومجادلتها فقد عرف الفكر الإسلامي هذا النوع من الدراسة للأديان في وقت مبكر، وقد حظي بإقبال ثلة مهمة من علماء الإسلام، فكتبوا فيه الشيء الكثير<sup>43</sup>، واتخذ أشكالاً متعددة، منها شكل المناظرات الحية التي كانت تتم في مجالس عامة أو خاصة بين علماء مسلمين وغير

<sup>41</sup> في مقارنة الأديان، بحوث ودراسات، ص38

<sup>42</sup> الدين، ص21

<sup>43</sup> تزخر المكتبة الإسلامية بمئات الكتب من هذا القبيل، وقد وضع الباحث المغربي خالد مفلح كتاباً مصغراً في حدود ثلاثين صفحة، جمع فيه كتب المسلمين في مجادلة أهل الكتاب، ومن بين الكتب التي ذكرها: الرد على اليهود لأبي بكر الأصم شيخ المعتزلة. الرد على اليهود للجاحظ. بذل المجهود في إفحام اليهود السموي بن يحيى المغربي. الضر المنضود في الرد على فيلسوف اليهود لابن الساعاتي. الحسام الممدود في الرد على اليهود لعبد الحق المغربي. الرد على النصارى لأبي بشر سهل بن المعتز. الحجة على النصارى لسحنون المالكي. الرد على أهل الكتاب من الكتاب للخمي. الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل للغزالي. تخجيل من حرف الإنجيل لأبي البقاء الجعفري الهاشمي. النفائس في أدلة هدم الكنائس لابن الرفعة الشافعي.

مسلمين، ومنها شكل الرسائل المتبادلة<sup>44</sup>، حيث كان علماء الإسلام يقومون بالرد على بعض الرسائل التي يرسلها الأحرار أو الرهبان أو القساوسة إلى الأمراء والملوك، والتي تطعن في الإسلام وتتنصر لليهودية أو المسيحية. وهناك شكل ثالث أكثر انتشاراً، تمثل في تلك الدراسات التي خصصها علماء الإسلام للرد على مسألة أو أكثر في ديانة ما، مثل كتاب أبي عيسى الوراق "الرد على فرق النصارى الثلاث" وكتاب الجاحظ "المختار في الرد على النصارى" وكتاب ابن القيم "هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى" وكتاب "الإعلام" لأبي العباس للقرطبي<sup>45</sup>.

أما فيما يخص نقد الأديان، فلعل أشهر من كتب فيه هو ابن حزم الأندلسي، من خلال كتابه الفصل في الملل والأهواء والنحل، حتى اعتبر رائد الدراسات النقدية للأديان.

#### المبحث السادس: دراسة الأديان في أوروبا الحديثة إلى حدود القرن الثامن عشر

ما إن بدأ الغرب يتخلص من قيود الكنيسة الكاثوليكية انطلاقاً من عصر النهضة، حتى تحررت الدراسات الدينية من التعصب للدين المسيحي، وانفتحت على أديان العالم، فوجدنا باحثين ينتقدون المسيحية والكتاب المقدس، ويدرسون الأديان الأخرى دراسة موضوعية، وهي أمور شكلت قبل ذلك خطوطاً حمراء. يقول مسلان: "... فمنذ القرن السابع عشر، مع مجموعة من المفكرين التحرريين، وقع العزم على إرساء نقد للدين الرسمي؛ حيث أنت أدبياتهم السرية خليطاً من المعارضة السياسية والنقد العقلاني لللاهوت الكاثوليكي وللمعجزات وللكتاب المقدس، كل ذلك باسم التطبيق الصارم لمنهج تاريخي وضعي<sup>46</sup>". فمع زيادة الاهتمام بالدراسات اللسانية (اللغوية) المقارنة، لاسيما دراسة العبرية والسريانية، وخروج أصحاب حركة

<sup>44</sup> مثل رسالة راهب دير كلوني Cluny في جنوب فرنسا إلى أمير سرقسطة في الأندلس، ورد أبي الوليد الباجي عليها. ورسائل بولس الراهب ورد ابن تيمية عليها.

<sup>45</sup> في مقارنة الأديان بحوث ودراسات، ص 48

<sup>46</sup> علم الأديان، مساهمة في التأسيس، ص 43-44

الإصلاح الديني المسيحي (البروتستانت) عن قاعدة التمسك بحرفية النصوص الدينية<sup>47</sup>، ظهر تحول كبير في الدراسات المتعلقة بالكتاب المقدس، يوضحه بولاي بقوله:

« La connaissance des langues anciennes développée par l'Humanisme, le zèle croissant pour les recherches archéologiques, l'appel exclusif de la Réforme à l'autorité de l'Écriture amenèrent, par un mouvement parallèle, une transformation des études bibliques. Les exégètes s'efforcèrent d'expliquer les allusions du texte sacré à l'histoire des peuples ethniques, ... à préciser le rapport des coutumes patriarcales et des institutions mosaïques soit avec les cultes païens, soit avec la liturgie chrétienne. »<sup>48</sup>

فقد سعى مفسرو الكتاب المقدس لشرح تلميحاته المتعلقة بتاريخ الشعوب ذات الصلة العرقية ببني إسرائيل، وتحديد علاقة مرحلة الآباء والمؤسسات الفسيفسائية سواء بالعبادات الوثنية، أو القديس المسيحي، إلى غير ذلك من دراسات وأبحاث أدت إلى ظهور عدد من الأطروحات والكتابات نذكر منها:

- les Antiquités judaïques du bénédictin espagnol Benoît Arias Montanus (1593)
- les Dieux Syriens de John Selden (1617)
- la République des Hébreux du calviniste hollandais P. Van der Kun (1617)
- la Théologie païenne du calviniste Gérard Vossius (1641-69)
- L'Histoire Orientale du savant luthérien J, H.Hottinger,(1651)<sup>49</sup>

ومن جانب آخر ساهمت البحوث التبشيرية المسيحية في ازدياد العناية بدراسة ديانات المجتمعات

البدائية<sup>50</sup>. فوجدنا كثير من الباحثين يتتبعون الديانات البدائية، حيث عمد اللورد (H.de Cherbury) و

(A. Collins) إلى تصنيف الديانات على اختلاف أنواعها، وأخذ المبشرون بدراسة كتب الهند المقدسة

وترجمتها، وذهب (Lafitau) إلى التقريب بين الديانات البدائية، وبين عبادات العصر القديم<sup>51</sup>.

<sup>47</sup> مدخل لدراسة تاريخ الأديان، ص51

<sup>48</sup> Histoire de l'étude comparée des religions, p180

<sup>49</sup> Histoire de l'étude comparée des religions, p181

<sup>50</sup> مدخل لدراسة تاريخ الأديان، ص51

<sup>51</sup> علم الأديان وبنية الفكر الإسلامي، ص7

لقد أنتجت الفترة ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر - حسب بولاي- عددا هاما من الدراسات الدينية، سواء ما تعلق منها بالمسيحية أو غيرها من الأديان<sup>52</sup>، والتي ساهمت في إرساء علم الأديان، ومهدت لظهوره علما قائما بذاته ابتداء من النصف الثاني من القرن التاسع عشر وفق مناهج متعددة، وخصص له عدد من الكراسي في مختلف الجامعات الأوروبية<sup>53</sup>، فأخذ بذلك هذا العلم طابعا معرفيا متميزا عند الغرب<sup>54</sup>.

### خاتمة:

يمكن أن نخلص من خلال هذا التاريخ الطويل لعلم الأديان إلى القول: إن علم الأديان أو مقارنة الأديان علم تتقاسمه مختلف الشعوب والحضارات الإنسانية - قديمها وحديثها - فكل واحدة أسهمت حسب إمكانياتها وظروفها في بناء صرح هذا العلم، حتى اكتمل نضجه في أوروبا في القرن التاسع عشر. ولا شك أن الناظر في هذا التاريخ الطويل لدراسة لأديان، سيخرج بنتيجة رئيسية، وهي أنه كان للمسلمين الأثر البارز في هذا الحقل العلمي من خلال ما قدموه من أبحاث ودراسات اتسمت بالعلمية والموضوعية في أغلبها، وقد شهد لهم بذلك علماء الغرب المحدثين، فإن كثيرا من هؤلاء يؤكد أن علماء الإسلام قدموا إسهامات لا يمكن إغفال قيمتها العلمية، أو التقليل من شأنها في مجال علم مقارنة الأديان، بل أكثر من ذلك اعتبر بعض الباحثين - سواء من المسلمين أو من الغربيين - علم الأديان، أو علم مقارنة الأديان، علما إسلاميا، ابتكره المسلمون وكان لهم فضل السبق في إظهاره وإخراجه للوجود. يقول عبد الله الشرقاوي: "لقد كان للفكر الإسلامي شرف النشأة الأولى لعلم الدين المقارن، ومن ثم فإن الأبوة الشرعية لهذا العلم تكمن في الفلسفة الإسلامية."<sup>55</sup> وقال إبراهيم تركي: "إنه من الممكن أن يقال، وفي شيء من

<sup>52</sup> la période du XV au XVII siècle a produit, en bon nombre, en dépendance de l'Humanisme, des Sommes de mythologie comparée et de théologie, en dépendance de la Réforme, des Histoires comparées de tous les cultes, des Histoires comparées des dogmes chrétiens, des Apologétiques comparatives. Histoire de l'étude comparée des religions, p197

<sup>53</sup> في سنة 1893 فتح قسم خاص في جامعة Chicago سمي الأديان المقارنة، وفي جامعة السوربون Sorbonne فتح قسم يحمل نفس الاسم بقرار من البرلمان الفرنسي سنة 1895، ووضع أول كرسي لعلم الأديان في ألمانيا (برلين) سنة 1910، ثم في إيطاليا (ميلانو) سنة 1912.

<sup>54</sup> شلبي أحمد، مقارنة الأديان اليهودية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1997، ص35

<sup>55</sup> في مقارنة الأديان بحوث ودراسات، ص32

الاطمئنان: إن مفكري الإسلام كان لهم فضل سبق في ظهور علم مقارنة الأديان. إذ إنه من الملاحظ أنه لا توجد في الثقافات السابقة على الحضارة الإسلامية مؤلفات تعالج هذا الموضوع بالدقة والمنهجية التي اتسمت بهما الكتابات الإسلامية في هذا الصدد.<sup>56</sup> وقال آدم متز: "وكان تسامح المسلمين في حياتهم مع اليهود والنصارى، وهو التسامح الذي لم يسمع بمثله في العصور الوسطى، سببا في أن لحق بمباحث علم الكلام شيء لم يكن قط من مظاهر العصور الوسطى، وهو علم مقارنة الملل."<sup>57</sup> وقال فرانز روزنتال (Franz Rossental): "إن الغرب يعترف اليوم صراحة بأن الدراسة المقارنة للأديان تعتبر واحدة من الإنجازات العظيمة للحضارة الإسلامية، أسهمت في التقدم الفكري للإنسانية كلها."<sup>58</sup> كما أشادت دائرة المعارف البريطانية بجهود المسلمين المتميزة في دراسة الأديان، مشيرة إلى سبق المسلمين - خاصة ابن حزم - في معرفتهم بالأديان معرفة تفوق المعرفة الأوروبية:

" Muslim knowledge of other religions was in advance of European knowledge, notably in the work of the theologian Ibn Hazm."<sup>59</sup>

#### لائحة المصادر والمراجع:

- الأعظمي محمد، دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند، 2003، مكتبة الرشد ناشرون الرياض

<sup>56</sup> علم مقارنة الأديان عند مفكري الإسلام، ص 55

<sup>57</sup> الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، آدم ميتز، ج 1، ص 366

<sup>58</sup> في مقارنة الأديان بحوث ودراسات، ص 33

<sup>59</sup> www.britannica.com, encyclopedia-britannica online

- إيلي ألفا روني، موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب، 1992، دار الكتب العلمية بيروت
- ألفت غريز، محمد والمسيح دراسة مقارنة، ترجمة بسام مرتضى، بيروت، دار الأمير للثقافة والعلوم، 1996
- ابن النديم، الفهرست، دار المعرفة بيروت
- تركي إبراهيم، علم مقارنة الأديان عند مفكري الإسلام، 2002، دار الوفاء لنديا الطباعة والنشر الإسكندرية
- جيب وعادل العوى، علم الأديان وبنية الفكر الإسلامي، 1977، منشورات عويدات بيروت
- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، متز آدم، نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف

والترجمة والنشر، 1987

- حافيي مسعود، مدخل لدراسة تاريخ الأديان، 2010، دار الأوائل للنشر والتوزيع دمشق
- خزعل الماجدي، علم الأديان، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، الرباط، 2016.
- دراز عبد الله، الدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، 2003، دار القلم للنشر والتوزيع القاهرة
- الزركلي خير الدين، الأعلام، 2002، دار العالم للملايين بيروت
- الشرقاوي محمد عبد الله، في مقارنة الأديان، بحوث ودراسات، 2002، دار الفكر العربي القاهرة
- شلبي احمد، مقارنة الأديان اليهودية، 1997، مكتبة النهضة المصرية القاهرة
- مسلان ميشال، علم الأديان، مساهمة في التأسيس، ترجمة عز الدين عناية، 2009، المركز الثقافي العربي بيروت

• de la Boullaye Pinard, Histoire de l'étude comparée des religions, Copyright by Gabriel Beauchesne, 1922, Paris

• Tiwari Kedarnath, Comparative religion, Delhi 1983, Motilal Banarsidas, Delhi

• Frazer James George, The golden bough , a study of magic and religion, temple of earth publishing

• www.britannica.com, encyclopedia-britannica online